الباب الثانـــى

تقـد المذهب الماركسى

فى الصفحات السابقة قدمنا عرضا موجزا وسريعا للنظرية الماركسـية فى مختلف جوانبهـا : الفلسـفية والأخلاقيـة والاجتماعية والاقتصـادية ، وقـد تحرينا فى ذلك العـرض الحيدة التامة والموضوعية المطلقة ، فقـد اعتمدنا فيه علـى المصـادر الماركسية نفسـها .

وهذا هو المنهج الذى التزمناه فى عرض هذا المذهـب وتحليله لثقتنا بأنه هو الأجـدر بالاتباع عند تناول المذاهب المخالفة : تعرض أولا عرضـا نزيها بموضوعية تامة اعتمادا على مراجعها الأصلية ، ثـم يوجه اليها الباحث بعد ذلك سهام نقده .

ونحن نبـدأ الآن هذه المرحلة الثانية التى تتمثل فى نقـد المبادىء الماركسية ومناقشتها .

ونحن اذ نستعرض هذه المبادىء نجد أنها تقوم على دعامتين أساسيتين هما : المادية والجدلية .

وسنبدأ بنقد هذين المبدأين أولا : ثـم نناقش بعد ذلك الجوانب الأخرى التى تحتاج الى مناقشة .

أولا : الماديـة :

لقـد عرفنـا من قبل أن المذهب المادى ليس من ابتداع « كارل ماركس » بـل هو مذهب يضرب فى أغـوار الماضى السحيق ـ وجـد عند الهنود القدماء ، وعند الاغريق متمثلا فى الطبيعيين الأولين وفى المذهب الـذرى ـ ووجـد أيضـا عند العرب فى

جاهليتهم ويسمى أتباعه بالدهريين لقولهم كما يحكى القرآن عنهم : « ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (١) ـ وهم الذين يقول قائلهم : « ان هى الا أرحام تدفع ، وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر » ـ كما أن المذهب المادى قد تبناه أيضا كثير من الفلاسفة المحدثين ٠

هذا المذهب الذى ينكر كل ما عدا المادة المحسوسة كان له أنصاره فى القديم ولا يزال له أتباعه فى الحديث ، وأبرزهم وأشدهم خطورة هم الماركسيون ٠

ونحن اذ نهدف الى هدم المذهب الماركسى ينبغى أن نعمل معاولنا أولا فى تقويض المذهب المادى ـ وهو أساس الماركسية ـ فاذا نحن قوضنا الأساس انهدم البنيان ٠

وتقويض المذهب المادى سهل ميسور لا يحتاج الى كثير عناء ٠

فالمذهب المادى ينكر كل ما هو مجرد عن المادة ، فهو ينكر وجود الله تعالى ـ لأنه لا يدرك بالحواس ـ وينكر أيضا جميع الغيبيات والسمعيات من ملائكة وبعث وجنة ونار ٠٠ الخ ٠

وما أسهل نقد المذهب المادى والرد عليه ، وسنكتفى بالردود الآتية :

١ ـ الماركسيون يعترفون بوجود « الفكر » ـ وهو عندهم يعنى النشاط المعنوى للانسان الذى يشمل آراءه ومعتقداته وعواطفه وانفعالاته وشخصيته وكل ما لا يخضع للتشريح المادى فى الانسان ـ وهذه الأشياء كلها غير مادية ، واعترافهم الماركسيين بوجود هذه الأشياء يتضمن اعترافا بوجود ما هو مجرد عن المادة ٠

---

(١) سورة الجاثية ـ الآية (٢٤) ٠

وادعاء الماركسيين أن الفكر طور من أطوار المادة هو ادعاء لم يقم عليه دليل ـ هو مجرد افتراض وخبط واعتقاد فى أمور لم يقم عليها دليل علمى ٠

٢ ـ يذهب الماركسيون الى أن المادة تسبق الفكر فى الوجود وأن الفكر طور من أطوار المادة ـ وان لنا أن نسائل الماركسيين ـ من الذى أوجد المادة ؟ ان النظام البديع الذى يحكم هذا الكون ، وهذا التناسق بين أجزائه ، والجمال المنبث فى أنحائه ـ ان ذلك كله لينبىء عن وجود قوة وراء هذه المادة المحسوسة ـ هذه القوة هى التى أبدعت ونسقت وجملت ودبرت ونظمت ، فان المادة بذاتها عاجزة عن الابداع والتنسيق والتجميل والتدبير والتنظيم ـ تلك القوة هى ما يطلق عليه الدين اسم « الله » ٠

٣ ـ ان القول بأسبقية المادة على الفكر فى الوجود قول يعوزه الدليل العلمى ، فهم لم يشهدوا كيف بدأ الخلق حتى يحكموا هذا الحكم ويقطعوا هذا القطع ـ والماركسيون لا يؤمنون الا بما يخضع للتجربة العلمية القائمة على الحس والملاحظة والمشاهدة ـ وهذا الموضوع لا يخضع لذلك ـ بل هو غيب من الغيب الذى لا يؤمنون به ـ ونحن نلزمهم ونفحمهم فنقول : اما أن لا تؤمنوا بما هو غيب لا يدرك بالحس فلا معنى اذا لأن تحكموا بأسبقية المادة على الفكر ، لأن هذا الأمر لم تشاهدوه ، واما أن تؤمنوا بما هو غيب لا يدرك بالحس فعليكم أن ترفضوا اذا المذهب المادى الذى هو أساس مذهبكم الماركسى ٠

٤ ـ ان انكار وجود ما لا يدرك بالحس يتعارض مع النتائج العلمية ـ والماركسيون يدعون أنهم يؤمنون ايمانا

مطلقـا بالعلم ونتائجه ـ وقـد أثبت العلم وجود أشياء كثيرة موجودة حولنـا ولا يدركها الحس ٠

مـن بين هـذه الأشـياء « الميـكروب » الذى لا يـرى الا « بالميكروسكوب » والذى لـم يكتشف الا بعد اختراع هـذا الجهاز ، فالميكروب كان موجودا من قبل ولا يحس بـه أحد ، فما الذى يمنع من وجود أشياء مجردة عن المـادة لا يحس بهـا أحـد ٠

ان موقفهؤلاء الذين ينكرون المجردات يشبه موقف أجدادنا الذين لـو قيل لهم ان هناك شيئا أسمه « الميكروب » لأنكروه لأنهم لم يشـاهدوه ٠

ان عـدم قدرتنا على ادراك شىء بحواسنا لا ينفى وجود ذلك الشىء فان عدم ادراك أجدادنـا بحواسهم للميـكروب لا يقوم دليـلا على عـدم وجوده ٠

ولقـد اثبت العلم أن ما يدرك بالحس من المـواد لا يمثل الا ٧ ٪ فقط من مجموع المواد ٠

واذا كان الأمـر كذلك فما الذى يمنع من وجود أشياء غـير ماديـة لا تدرك بالحس ؟ ٠

٥ ـ ان انكـار وجود الله ـ وهو القضية الأساسية للمذهب المادى ـ هذا الانكـار يتعارض مع النتائج العلمية الحديثة ـ ولا يزال العلم الحديث يؤكد كل يوم وجود قـوة مدبرة لهـذا الكون ، قـوة خالقة غير مرئية ٠

العلم الحديث يثبت أن هذا العالم لـه بداية ـ وهذا يعنى

أن لـه خالقا . فقد ثبت علميا أن كفـاءة عمل الكون تتناقص يوما بعد يـوم ، وأن حرارة الكـون تتناقص شيئا فشيئا ـ واذا كان الأمـر كذلك فسيأتى يـوم ينتهى فيه هذا العالم وكل ما له نهاية لـه بداية ، وكل ما له بداية لا يمكن أن يبتدىء بذاته بـل لابـد لـه من خالق .

وبالاضافة الى هذا فان علم الفلك يقرر أن الكون يزداد اتساعا يوما بعد يـوم ، وأن الأجرام السماوية تتباعـد باسـتمرار وبسرعة ، فالكون يتمدد ويتسع بسرعة أكثر من مائـة ميـل فى الثانية الواحدة وقد أصبح حجمه الآن أكثر من حجمه عشر مرات منه بدايته ـ وفى هذا مصداق لقوله تعالى : « والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون » (١) .

ونحن نستخلص من هذا نتيجتين :

النتيجة الأولى : أن الكون كان شيئا واحـدا ثـم تباعدت أجـزاؤه بعضها عن بعض ـ وهذا يعنى بالتالى أن لـه بداية أى أن لـه خالقـا وهو مصداق قوله تعالى : « أو لـم ير الذين كفـروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » (٢) .

النتيجة الثانية : أنه كلما ازداد اتسـاع الكون ضعـفت الجاذبيـة حتى تتلاشى فتخرج الأجرام عن أفلاكها ويصطدم بعضها ببعض ، وبهذا ينتهى الكون ـ وكل ما له نهاية لـه بداية أى لـه خالق وموجد وهذا مصداق قوله تعالى : « اذا السماء انفطرت واذا الكواكب انتثرت ، واذا البحار فجـرت واذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت » (٣) .

---

(١) سـورة الذاريات . الآيـة (٤٧) .
(٢) سـورة الأنبيـاء . الآية (٣٠) .
(٣) سـورة الانفطـار . الآيـات (١ ـ ٥) .

فالعلم الحديث اذا يهدم من الأساس المذهب المادى الذى ينكر وجود الله الخالق ويزعم أن المادة هى التى أوجدت نفسها ٠

وصدق الله العظيم : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون » (٤) ٠

٦ ـ المذهب المادى يرى أن بدء الانسان ومشاعره وعواطفه وانفعالاته وأفكاره ومعتقداته قد جاءت كلها نتيجة ترتيب رياضى اتفاقى فى نظام الذرة ، وأن الموت ينهى حياة الانسان ولا تستطيع أية قوة احياءه مرة أخرى ـ وأن مجهودات الانسان وتضحياته وبطولاته وفنونه الجميلة وعلومه ستدفن كلها الى الأبد مع انتهاء هذا الكون ٠

ففى ضوء المذهب المادى يفقد كل شىء جميل معناه وأهدافه ولا يبقى سوى التشاؤم والظلام ـ وفى ظلال الدين يحس الانسان بحلاوة التفاؤل والأمل ، فالحياة ذات هدف ، وكذلك الموت ـ وكل ما هو جميل من عواطف ومشاعر وعقائد وقيم وأفكار سامية وتضحية ـ يجد له مكانا فى ظله ٠

والعلماء حين يوازنون بين فكرتين يختارون تلك التى تفسر المسائل المتنازع عليها بطريقة أكثر بساطة ويسرا ٠ ونحن حين نوازن بين المذهب المادى والدين نجد أن الأول يفسر الكون بطريقة معقدة مبتورة ، اذ يبقى كثيرا من الأمور غامضة وبدون تفسير ـ أما الدين فانه يفسر الكون وما وراءه بطريقة سهلة ميسورة شاملة ، لا تدع أمام الانسان مسائل غامضة أو معلقة ، وهو بهذا يرضى العقل ويشبع العاطفة ٠

---

(٤) سورة الطور ، الآيتان (٣٥ ـ ٣٦) ٠

٧ ـ ولكن اذا كان الأمـر كذلك فلماذا لا يسلم العلمـاء بصحة الدين ؟

أن التعصب المقيت ضـد الدين هـو الذى يحـول بينهم وبين ذلك ٠

ويقول أحـد العلماء الانجليز : « ان فى عقولنا تعصبا يرجح التفسير المـادى للحقائق » ٠ ويصرح عالم آخـر بأنه بينمـا كان ينظر الى أذن ابنته الصغيرة أخذ يفكـر فى أنه من المستحيل أن يوجد شىء معقـد ودقيق كهذه الأذن بمحض الصدفـة ، بل لابد أنـه جـاء نتيجة ارادة ذات تدبير ٠ ثـم يصرح بأنـه لـم يلبث أن طـرد هذه الفكرة الخبيثة حتى لا يضطر الى الايمان بالله ٠

وقـد بقيت نظرية « التطـور العضوى » حتى يومنا هـذا بدون أدلة علمية ـ ومع ذلك يصرح كثير من العلماء : « أنهم لا يؤمنون بهذه النظرية الا لأنه لا يوجد أى بديـل عنها سـوى الايمان بالله مباشرة » ٠

ويصرح عالم أمريكى بقوله : « ان كون العقيدة الالهية معقولة ، وكون انكار الالـه سفسطة لا يكفى ليختار الانسان جانب العقيدة ، فالناس يظنون أن الايمان بالله سـوف يقضى على حريتهم العقلية ٠٠٠ فأيـة فكرة تحد من هذه الحرية تثيـر الوحشة لديهم ٠

وصدق الله العظيم : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلـوا » (٥) ٠

---

(٥) سـورة النمـل ـ الآية (١٤) ٠

٨ ـ ان القول بأن الدين ايمان بالغيب فى حين أن العلم ايمان بالملاحظة العلمية قول باطل ، فالعلم أيضا يؤمن بالغيب ـ فمثلا نظرية التطور العضوى التى يكاد يجمع العلماء على صحتها ـ لم يلاحظها أحد منهم ولم يجربها فى معمله ، اذ أنها تتعلق بماض سحيق ، ومع ذلك فقد جعل العلماء منها ـ وهى غير قابلة للتجربة ـ حقيقة علمية ، وذلك لعدة أسباب : أهمها :

١ ـ أن هذه النظرية توافق جميع الحقائق المعلومة .

٢ ـ أنها تفسر كثيرا من الأمور التى لا يمكن فهمها الا بواسطتها .

٣ ـ وأنه لم يظهر لها بديل .

وهذه الأسباب نفسها موجودة فى جانب الدين بصورة أكمل ، فلماذا التفرقة اذا ؟ هذا ايمان بغيب وذاك ايمان بغيب .

* * *

وبعد أن وجهنا هذه السهام الى الأساس الأول للماركسية ـ وهو « المادية » ننتقل الى الأساس الثانى وهو : « الجدلية » .

ثانيا : الجدلية :

نحن نسلم بأن الازدواجية هى أساس هذا الكون ـ والله عز وجل يقول : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » (٦) . « سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض أنفسهم ومما لا يعلمون » (٧) . فالانسان ذكر وأنثى ـ وكذلك الحيوان وقد أثبت العلم الحديث أن جميع أزهار النباتات تجمع بين أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، وهو

---

(٦) سورة الذاريات ـ الآية (٤٩) .
(٧) سورة يس ـ الآية (٣٦) .

المشار اليه بقوله تعالى : « مما تنبت الأرض » ، كما أثبت العلم أيضا أن الازدواجية موجودة فى الجمادات ، فهى تتكون من ذرات ، وكل ذرة مكونة من « بروتونات » ذات كهرباء موجبة و « الكترونات » ذات كهرباء سالبة .

ومن هنا يتبين أن الاسلام يقول بالازدواجية فى كل شىء ، فهناك الليل والنهار ، وهناك الذكر والأنثى ، والعلم الحديث يثبت أن السالب والموجب يوجدان فى الذرة ، والكهرباء ، والمغناطيس ، والجماد ، والنبات والحيوان ، والانسان ـ ولكن الازدواجية لا تعنى أبدا التناقض،أى لا تعنى الجدلية ، بل ان الازدواجية فى الكون تعنى التكامل والانسجام ، لا الصراع والخصام ، فعلى أساس من وجود الخير والشر ، والنور والظلام ، والذكر والأنثى ، والسالب والموجب يتم الانسجام والتكامل فى هذا الكون .

فالذكر يكمل نقص الأنثى ، والأنثى تكمل نقص الذكر ، وليس معنى وجود الذكر الى جانب الأنثى أن ينشأ بينهما الصراع والخصام ، كما أن وجود الليل الى جانب النهار لا يعنى تنازع الليل والنهار ، بل يعنى التكامل « وجعلنا الليل لباسا ، وجعلنا النهار معاشا » (٨) وقل مثل ذلك فى بقية الأشياء .

ان التناقض لا يحدث الا بخروج هذه الاشياء عن طبيعتها ـ فتخرج المرأة مثلا عن طبيعتها أو يخرج الرجل عن طبيعته فينشأ الشقاق والخصام ـ أما متى عرف كل منهما حدوده ووظيفته وحقوقه وواجباته كان الأمر بينهما كما تشير اليه الآية الكريمة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » (سورة الروم . آية ٢١) أن الازدواجية فى الكون

---

(٨) سورة النبأ ـ الآيتان (١٠ ـ ١١) .

انما تعنى التكامل والانسجام ، لا الشقاق والخصام كما يريد الماركسيون ، وصدق الله العظيم : « لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ، ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (سورة يس • آية ٤٠) نعم نحن نقول بالجدلية اذا كانت تعنى مجرد وجود الزوجية في كل شىء فهذا مما يصرح به القرآن ، ولكننا نرفض الجدلية التى تعنى التناقض والصراع والتنازع وما ينشأ عن ذلك من تطور ذاتى فان ذلك خروج بالأشياء عن طبيعتها (١) •

* * *

ونحن اذ فرغنا الآن من نقد المبدأين الأساسيين للماركسية ، وهما : المادية والجدلية •

ننتقل الى نقد بعض النواحى الأخرى الفرعية لهذا المذهب :

١ ــ تذهب الماركسية الى أن فلسفتها قائمة على أحدث القوانين العلمية ، ومنها قانون بقاء الطاقة وتحولها ، وقانون تكوين الأجسام الحية من خلايا قابلة للتطور ومذهب « دارون » فى النشوء والارتقاء ، ومن ثم فهى ترى أن مبادئها حتمية لأنها مؤسسة على القوانين الحتمية للعلم ، ونحن نرى أن قوانين العلم ليست مطلقة ولا ضرورية ولا يقينية ، بل غاية ما تفيده الظن فقط ، ومن الممكن أن تتخلف ، اذ أنها تقوم على استقراء الظواهر وهو استقراء ناقص ، اذ لا يمكن استقراء جميع الظواهر فى كل زمان ومكان ، ومن ثم كانت النتيجة القائمة على هذا الاستقراء غير يقينية ولا حتمية ولا ضرورية بل من الممكن دائما أن تتخلف •

---

(١) يرجع فى موضوع « الجدلية » ومناقشتها الى كتاب : « أساليب الغزو الفكرى للعالم الاسلامى » ــ للدكتور على محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق ــ ففى هذا الكتاب آراء جيدة فى هذا الموضوع أثبتنا بعضها هنا فى بحثنا هذا • انظر ص ١١٧ ــ ١١٩ من الكتاب المذكور الطبعة الثانية ، ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م ــ دار الاعتصام بالقاهرة •

ثم ان نتائج العلم التجريبي غير ثابتة على حال واحدة ، فالعلم ينفى اليوم ما كان قد أثبته بالأمس ، وبالعكس ، ومنشأ هذا نقص الاستقراء واحتمال الخطأ فى النتيجة .

٢ ـ يذهب الماركسيون الى أن النظام الشيوعى هو نهاية المطاف ، فهو الذى ينشىء مجتمعا سعيدا ترفرف عليه العدالة المطلقة ويسوده التعاون التام ـ فهو الجنة الموعودة الأبدية ـ ونحن نرد عليهم من مذهبهم ـ فهم يقولون ان المجتمع فى تطور مستمر ـ تطور قائم على صراع الأضداد ، وهذا يعنى أن النظام الشيوعى هو أيضا سيتطور وينقلب الى النقيض ـ وهذا تناقض واضح فى مذهبهم .

٣ ـ بناء على نظرية البناء الفوقى والبناء التحتى يرى الماركسيون أن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية هى التى تصنع الأفكار الدينية والأخلاق ـ وهى التى تقوم ببناء الانسان فكريا ـ وهذه الفكرة تلغى ارادة الانسان وشخصيته وتحيله الى مجرد شىء لا حول له ولا قوة ، لا يملك مجرد التفكير فى الابداع بل هو مجبور على أن يفكر بالطريقة التى تسمح بها ظروفه الاقتصادية . واذا كان الأمر كذلك فكيف استطاع « كارل ماركس » ـ الذى عاش فى ظل نظام رأسمالى ـ أن يضع النظرية الماركسية التى تعادى الأوضاع الاقتصادية السائدة فى مجتمعه .

واذا كان الدين وليد نظام اقتصادى معين ،فلماذا لم تكن الماركسية وليدة النظام الاقتصادى الرأسمالى السائد فى عصرها ؟

٤ ـ ان من له أدنى معرفة بالتاريخ يعلم أن الأديان كانت دائما هى المؤثرة فى المجتمعات وفى العلاقات بين الناس ومن

بينها علاقات الانتاج ، وليس الأمر بالعكس ـ وأصدق شاهد على هذا « دين الاسلام » الذى جاء فأقام مجتمعا يختلف جذريا عن المجتمع الجاهلى ، ووضع نظاما اقتصاديا فذا يحقق الازدهار والعدالة الاجتماعية ، ولم يكن الاقتصاد الجاهلى ولا علاقات الانتاج فى مكة هى السبب فى نزول القرآن .

٥ ـ تدعى الماركسية أنها تعمل على تكوين مجتمع خال من الطبقات ، فى الوقت الذى تولى فيه كل عنايتها لطبقة واحدة من طبقات المجتمع ـ أعنى طبقة البروليتاريا ـ فهى تعمل على تركيز السلطة السياسية والسيطرة الاقتصادية والاجتماعية فى يد هذه الطبقة ـ فكيف تدعى العمل على ازالة الطبقات فى الوقت الذى تمنح فيه طبقة واحدة كل الامتيازات وتحرم كل ما عداها .

٦ ـ تدعى الماركسية أنها ذات فلسفة شاملة فى حين أن فلسفتها قد وضعت لصلحة فئة محدودة من فئات المجتمع .
فعلى سبيل المثال : الأخلاق الماركسية ، فهى قد وضعت أساسا لخدمة طبقة العمال وتحريضها ضد الطبقات الأخرى فى المجتمع ـ فهى أخلاق لا أخلاقية ـ أية أخلاق تلك تثير الحقد فى النفوس ، وتغرس الضغائن فى المجتمع ، وتشعل الحروب بين أبناء البلد الواحد ؟ أية أخلاق تلك التى تفرق بدل أن توحد ، وتغرس الشر بدل أن تزرع الخير وترضى الغرائز الدنيا فى الانسان بدل أن تسمو به فوق المطالب الرخيصة للجسد ؟

٧ ـ ان نظرية القيمة التى يقول بها الاقتصاد الماركسى والتى تعنى أن قيمة أية سلعة هى فى مقدار العمل الذى

يبذله العامل فى هذه السلعة – هى محض خرافة – فبناء على هذه النظرية تكون قيمة قطعة من الذهب مساوية لقيمة قطعة من الحديد بذل فيها نفس العمل الذى بذل فى قطعة الذهب – ولا يقول بهذا الا أحمق .

٨ – مسألة تحول الكم الى كيف هى احدى الخرافات الماركسية ، والمثال الذى ساقوه للماء والبخار لا يعد سندا لهم ، فان حرارة الماء كيف وليست كما .

٩ – يرمى الماركسيون خصومهم بالرجعية ، فى حين أنهم هم أنفسهم يعتمدون على فكر رجعى قد يكون ملائما لظروف القرن التاسع عشر حيث قام « كارل ماركس » يبشر بمذهبه فى ظروف صناعية تعتبر متخلفة جدا اذا قيست بيومنا هذا حيث كان الاعتماد كله على العامل اليدوى ، ولقد كان هذا العامل يعيش على الكفاف ، أما اليوم فالظروف قد تغيرت تماما ، فالعامل اليوم لا يبذل جهدا فى العمل ، اذ تقوم الآلات المتطورة بالعمل نيابة عنه ، وهو لا يفعل سوى مراقبة الآلة ، كما أن حقوق العمال أصبحت معترفا بها من الجميع ، بل ان العامل خارج المعسكر الشيوعى يحصل على حقوق وامتيازات لا يتمتع بها زميله المحكوم بالأحزاب الشيوعية ، ويحيا فى ظروف مادية ومعنوية تفضل بمراحل الظروف التى يحيا فيها العامل فى البلاد الشيوعية .

١٠ – لقد أثبت التاريخ بطلان جميع التنبؤات الماركسية ، فالاعلان الشيوعى الصادر سنة ١٨٤٨ تنبأ بأن « ألمانيا » ستكون أول البلاد التى تقود الثورة الشيوعية بناء على أن الشيوعية ستظهر أول ما تظهر فى مجتمع رأسمالى صناعى متقدم – ومع ذلك فقد أثبت التاريخ كذب هذه النبوءة حيث قامت الثورة الشيوعية فى بلد زراعى متخلف وهو « روسيا » .

كما أعلن « ماركس » فى سنة ١٨٤٩ أن الجمهورية الحمراء تبزغ فى سماء « باريس » ، وهى لم تبزغ حتى يومنا هذا .

كما تنبأ بالصراع بين « البروليتاريا » و « البورجوازية » فى الدول الرأسمالية ، هذا الصراع الذى ينتهى بالثورة الاشتراكية ـ ولكن الذى حدث فى الدول الرأسمالية هو التقارب بين الطبقات الاجتماعية ـ بينما الصراع على أشده بين الدول الشيوعية المختلفة ، وأصدق مثل لهذا هو العداء المستحكم بين روسيا والصين .

١١ ـ لقد ظهرت عيوب « الماركسية » بالتجربة العملية ، وأوضح مثال لهذا أن « روسيا » سادت فيها « الماركسية » نصف قرن وهى تدعى أن كل شىء على ما يرام ، وأن النظام الزراعى وتقسيم الأموال ، وتوزيع العمل ـ قد تمت كلها بصورة خالية من العيوب وبعيدة عن الاستغلال ، وفجأة ـ بعد وفاة « ستالين » ـ قام سدنة « الماركسية » ينددون بفساد الحكم ، والظلم ، والاستغلال التى كانت تسود البلاد خلال حكم « ستالين » الذى كان يتصرف فى شئون الشعب بطريقة لا تقل فى البشاعة والاستغلال عن مثيلتها فى البلاد الرأسمالية الاستعمارية ـ وقد كانت أبواق الدعاية الروسية أيام « ستالين » تصور للعالم أجمع أن حكمه يمثل أبدع صور العدل والانصاف ـ وهى تقول نفس الشىء عن العهد الحاضر ، ولا ندرى ماذا سيقال بعده .

١٢ ـ ان حرمان الفرد من الملكية الخاصة ـ كما هو الأمر فى « الماركسية » يؤدى الى ضعف الحافز الفردى ، وبالتالى الى ضعف الانتاج ، وليس سرا أن « روسيا » التى كانت تقوم بتصدير ما يزيد عن حاجتها من القمح أيام الحكم القيصرى ،

وكانت تعد من أكبر الدول المصدرة للقمح ـ هى الآن تستورد القمح فى ظل النظام الاشتراكى ، ومن المسلم به أن الانتاج الصناعى للدول الاشتراكية الأوربية هو أسوأ بكثير من انتاج الدول الأوربية الأخرى ، فالماركسية اذا هى أحد عوامل التخلف الاقتصادى ٠

١٣ ـ تعمل النظم الماركسية على حرمان كل من لا يدين بمذهبها من كافة الامتيازات التى تغدق بغير حساب على أنصارها وأذنابها ، فأعضاء الحزب الشيوعى يملكون من النفوذ الاقتصادى والسياسى والاجتماعى ما لا يقاس بنفوذ الطبقة البورجوازية فى الدول الرأسمالية ، وتصب النظم الماركسية جام سخطها على كل صاحب فكر وقلم بل على المثقفين الذين لا يؤمنون بماركس بصفة عامة ويسمونهم « أعداء الثورة » ومكانهم معسكرات الاعتقال أو المصحات النفسية ، حيث تستخدم أحدث الأساليب لتعذيبهم جسديا ونفسيا ٠

النظام الاقتصادى فى الاسلام

الاسلام لا هو « ماركسية » ولا هو « رأسمالية » ، فهو يولى عنايته للفرد فى الوقت الذى يهتم فيه بتماسك المجتمع والقضاء على الاستغلال والاحتكار ، فاذا كانت « الماركسية » تلغى الفرد فى سبيل المجموع ، واذا كانت « الرأسمالية » لا تهتم الا بالفرد وحرية المبادرة الشخصية ـ فان الاسلام يعنى بالأمرين جميعا ، ويقيم نظامه على أساس التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ٠

انه لا يسحق الفرد كما تفعل « الماركسية » ، ولا يسمح بالاستغلال والاحتكار كما تفعل « الرأسمالية » ، أنه نظام اقتصادى مستقل ، يقوم على التعاون والتكافل بين جميع أفراده ، وليس على الصراع بين الطبقات ولا على استغلال القلة للكثرة ونعنى بالقلة : أعضاء الحزب الشيوعى فى النظام الماركسى ، والمحتكرين من أصحاب رؤوس الأموال فى النظام الرأسمالى ٠

ومن أهم ما يميز النظام الاقتصادى الاسلامى

(أ) أنه يعطى أهمية خاصة للفرد وحريته وحقوقه ، ويحمى ماله ودمه وعرضه وكرامته ، ويعتبر الاعتداء على الفرد اعتداء على الأمة بأسرها (١) ، ولا يسمح باهدار حقوق الفرد مهما كانت الأسباب والغايات ، وبالتالى فهو يرفض التضحية بالفرد تحت أى شعار ٠

---

(١) « أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » ٠ سورة المائدة ٠ آية (٣٢) ٠

(ب) يرفض الاسلام الاستبداد وحكم الفرد ، كما يرفض تسلط الأقلية على الأغلبية ، ويوجب على الحاكم أن يستشير أهل الحل والعقد – وهم العالمون بالشريعة والحياة – وبتعبير أهل العصر : هم ممثلو الأمة ونوابها – الذين يشترط فيهم العلم والحنكة ، فعلى الحاكم أن يستشير هؤلاء ولا يمضى أمرا دونهم ، كما أمر الاسلام بتسليم مقاليد الأمور الى الأكفاء وان لم يكونوا من أصفياء الحاكم .

(ج) المال فى الاسلام ملك لله ، والأفراد مستخلفون فى هذا المال : « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » (١) ، ومادام الفرد يؤدى حق المال من زكاة وانفاق فلا ضير عليه فى التملك والاستثمار على أن لا يضر بأحد ، ولا يحتكر سلعة ، ولا يستغل أجيرا ، ولننظر بامعان فى هذه الآيات :

١ – « والذين فى أموالهم حق معلوم ، للسائل والمحروم » (٢) فليست الزكاة تفضلا ، وانما هى « حق » للفقراء .

٢ – « ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو » (٣) أى ما زاد عن حاجة الانسان .

٣ – « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى الله فبشرهم بعذاب أليم » (٤) .

٤ – « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم » (٥) .

---

(١) سورة الحديد . آية (٧) .
(٢) سورة المعارج . آية (٢٤ – ٢٥) .
(٣) سورة البقرة . آية (٢١٩) .
(٤) سورة التوبة . آية (٣٤) .
(٥) سورة الحشر . آية (٧) .

٥ ـ « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين ، وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة » (١) .

فبعد ان ذكر ايتاء المال عطف عليه ايتاء الزكاة ، فليست الزكاة فقط هى كل ما يجب اخراجه من المال ، بل ان فى المال حقا آخر سوى الزكاة هو المشار اليه بقوله تعالى : « وآتى المال » الخ ...

(د) يقاوم الاسلام الترف ، ويعتبره من أسباب انهيار المجتمعات : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٢) ـ وهو بمقاومته للترف يعمل على تضييق الفوارق المادية بين الناس .

(هـ) يعتبر التكافل الاجتماعى أحد أسس هذا النظام ، فمن بات شبعان وجاره جائع لا يعد من جماعة المسلمين ، وفى الحديث الشريف : « من كان له فضل زاد فليعد به على من لازاد له » وقد كان عمر يعطى المولود مائة درهم ثم يزيده الى مائتين ، ويخصص أموالا للانفاق على المرضى ومن لا عائل له .

(و) يقاوم الاسلام تقسيم المجتمع الى طبقات متعادية متقاتلة يتربص بعضها ببعض ويسيطر عليها جميعا الحقد الأسود ، والمبدأ الاسلامى هو : « وان طائفتان من المؤمنين

---

(١) سورة البقرة . آية (١٧٧) .
(٢) سورة الاسراء . آية (١٦) .

اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (٣) ، « انما المؤمنون اخـوة » (٤) ، وهو بهذا يحفظ للمجتمع تماسكه ووحدته ، ويحميه من عوامل الفرقـة والانقسام بينما ترفع الماركسية شـعارات الحقـد والانتقـام والعنف الدموى ٠

(ز) يوصى الاسلام بحسن معاملة الأجير ، ويطلـب ممـن يستخدم انسانا فى عمل أن يطعمه مما يطعم ، وأن يكسـوه مما يلبس ، وأن لا يكلفه من العمل ما لا يطيق ، أو يسـاعده فى أداء العمل ٠٠

(ح) النظم الماديـة سواء أكانت رأسمالية أم اشتراكية تنظر الى المـال باعتباره قوة اقتصادية تمكن من التفـوق المـادى والسيطرة ، وهذا هو كل ما تهدف اليه ، أما الاسلام فينظـر الى المـال على أنـه معين على تقـوى الله والعمل الصالح من انفاق فى وجوه الخير ومودة ذوى القربى وحنو على البائسين ، وهذا البعد الروحى يجعل من الثروة نوعا من العبادة اذا جاءت من طريق مشروع وقصد بانفاقها ارضاء الله ـ وهذا وحده كافٍ فى تكوين مجتمع خال من الاحقاد والدماء ، يجمع بين القوة المادية والقـوة الروحية ، يراقب الله فيما يأتى ويدع ، مجتمع يسوده التراحم والتعاون والتكافل والاستقرار ، ويرفرف عليه الرخاء ٠

وشتان ما بين مجتمع يقوده شرطى وسجان ، وآخر يقوده ضمير مؤمن : « وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء ، وهو كل على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هـل يستوى هو ومن يأمـر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم » (٥) ٠

صدق الله العظيم

---

(٣) سورة الحجرات ۞ آيـة (٩) ۞

(٤) سـورة الحجرات ٠ آيـة (١٠) ٠

(٥) سـورة النحـل ٠ آيـة (٧٦) ٠

خصائص العـدل الاجتماعى

كمـا يـراه الاسلام (١)

الأبواق الماركسية يعلـو صخبها وضجيجها مرددة صبـاح مساء أن العدالة الاجتماعية كما يرسمها المنهج الاشتراكـى تفوق كل ما عرف فى المناهج الأخرى ، وأن توزيع الدخل فى الاقتصاد الماركسى يقوم على نوع من العدل فريد لا يدانيـه فيه أى نظـام آخـر ٠

ونحن هنـا نحـاول أن نعطى القارىء صورة عن ملامـح العدالة الاجتماعية كما جـاء بها الاسلام ليتضح لـه سمو هذه العدالة التى يدعو الاسلام الى تطبيقها بدون ضجيج ولا عنف ، ومن غير صراع ولا بغضـاء ٠

فقد عاش الانسان أمدا طويلا وهو يفرق بين القوى الروحية والقوى الماديـة ، ويذهب الى أن هذه تعارض تلك ، ولا يمكن التوفيق بينهما ، وأصـدق مثـال لذلك المسـيحية المحرفـة والبوذية ، اذ ترياى ان خلاص الروح لا يتم الا بقهر رغبـات الجسـد واهماله ٠

وقـد ترتب على هـذه النظرة ان أتبـاع هـاتين الديانتين المخلصين لتعاليمهما كانوا يـرون فى المـال والثروة قـذارة ونجسا ينبغى للمؤمن الحق ان يتنزه عنهما ما وسعه ذلك ٠٠ كانوا يحتقرون طيبات هذه الحياة وينأون بأنفسهم عنها ٠

---

(١) انظر : العدالة الجتماعية فى الاسلام ، تأليف الاستاذ سيد قطب ص ٢٠ ـ ١٦٢ ـ دار الشروق ـ ١٣٩٤ هـ ـ ١٩٧٤ م ٠

حتى جاء الاسلام فقدم للبشرية نظاما جديدا فريدا يجمع بين المادة والروح ، وبين الدنيا والآخرة فى نسق واحد ٠

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » (١) ٠

« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ ٠ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٢) ٠

لقد جاء الاسلام فوحد بين الروح والمادة ، وبين الدنيا والآخرة ، ولا عجب فهو دين التوحيد ٠

وهذه الوحدة لا تتم على حساب الروح ولا على حساب الجسد ، فهى لا تقهر هذا ولا ذاك ، بل تترك لكل منهما حريته فى النشاط بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر ، وعلى أن تكون الغاية هى خير البشرية وصلاحها ٠

وكما وحد الاسلام بين الروح والمادة فقد وحد أيضا بين الفرد والمجتمع ، وبين الطبقات ، فالجميع يخضعون لقانون واحد يتجه نحو غاية واحدة : ان يعمل الجميع متضافرين لاصلاح هذه الحياة الدنيا حتى تصلح حياتهم فى الآخرة ٠

وعلى هذا الاساس المكين من التوحيد تقوم شرائع الاسلام وتوجيهاته فى جميع المجالات ومن بينها مجال المال والاقتصاد ٠

---

(١)سورة القصص ـ الآية (٧٧) ٠
(٢) سورة الأعراف ـ الآية (٣٢) ٠

فالعدالة الاجتماعية كما رسمها الاسلام ليست عدالة مادية فحسب ، بل هى عدالة شاملة ، تلقى بظلالها الوارفة على جميع جوانب الحياة الانسانية ، وهى تتغلغل الى الشعور والضمير ، كما تحكم السلوك ٠

فهى ليست عدالة اقتصادية فقط ، ولا مادية فحسب ، بل ان للقيم الروحية فى هذه العدالة مكانا غير منكور ٠

واذا كانت المسيحية تدعو الى قهر الجسد ورغباته ، واذا كانت الماركسية لا ترى فى الانسان سوى حاجاته الجسدية فحسب ، ولا ترى فى الكون سوى المادة وحدها ، فان الاسلام يتخذ موقفا وسطا يوحد فيه بين حاجات الانسان المادية ، وحاجاته المعنوية ، توحيدا يتجه الى غاية نبيلة هى صلاح الدنيا والآخرة ٠

وانطلاقا من نظرة الاسلام التوحيدية فان الحياة تقوم لديه على أساس من التضامن والتراحم والتكافل بين المسلمين بصفة خاصة ، وبين بنى الانسان عموما ، بينما هى لدى الماركسية شقاق ونزاع وخصام وصراع بين الطبقات الاجتماعية حتى يتم الانتصار النهائى لطبقة « البروليتاريا » تلك الطبقة التى تقوم بتصفية كل ماعداها من طبقات ٠

فالعدالة الاجتماعية فى الاسلام تنهض على دعامتين قويتين :

١ ـ الوحدة الشاملة بين المادة والروح ٠

٢ ـ التضامن والتكافل بين أعضاء المجتمع ٠
وهى لاتتجاهل الفطرة الانسانية وما تحمله من أثرة

وحرص وحب للمال ، كما لاتتناسى فى الوقت ذاته مصلحة الجماعة ومطالبها ، وتعمل على التوفيق بين حاجات الفرد وحاجات المجتمع حتى لايطغى جانب على آخر ٠

فليس عدلا أن تطغى أنانية الفرد وأطماعه على مصلحة الأمة ، بل ينبغى كبح جماح الفرد ونوازعه بالتوجيه والتشريع ٠٠ وليس عدلا أن تطغى مصلحة الامة على فطرة الفرد وقدراته واستعداداته ، وأن تقف حائلا دون تفجير هذه القدرات وتنمية هذه الاستعدادات واستغلالها ، فان ذلك يتنافى مع صالح الفرد بل مع صالح الجماعة ذاتها اذ تحرم نفسها من الافادة من مواهبه وطاقاته ٠

فالاسلام يطلق حرية الفرد فى استغلال طاقاته ومواهبه على أن لايضر ذلك بالمجتمع،ولايتعارض مع المثل الأعلى للحياة كما يريدها الاسلام ـ تلك الحياة التى تقوم على التراحم والتضامن ، لاعلى التناقض والصراع كما يريد الماركسيون ٠

والعدالة من وجهة النظر الاسلامية تعنى تكافؤ الفرص ، وليس المساواة الاقتصادية بمعناها الحرفى ـ فالناس متفاوتون فى مواهبهم واستعداداتهم ، وليس من العدل التسوية بين العباقرة الموهوبين وبين الخاملين ـ انها تسوية تناقض الفطرة ، وتعوق أصحاب المواهب عن استغلال طاقاتهم لخير أنفسهم ولخير مجتمعهم ٠

فالاسلام لايطلب المساواة فى الثروة ، لان تحصيل الثروة ينهض على أساس من المواهب والطاقات والجهود غير المتساوية ، فمن العدل أن يتفاوت الناس فى الارزاق تبعا لتفاوتهم فى المواهب والاستعدادات ٠

ومع أن الاسلام يسلم بتفاوت الناس فى الارزاق فهو يطالب باتاحة الفرص المتساوية للجميع والقضاء على اعتبارات الحسب والنسب والعرق ٠

كما يطالب بتحرير الانسان من سلطان القيم المادية البحتة ، وتجريد هذه القيم من الهالة التى أحاطتها بها المجتمعات التى تقلل من شأن القيم الروحية ، وتجعل من المال الها يذعن له الجميع ٠

ان الحياة فى نظر الاسلام أسمى من أن تكون مجرد اشباع بطن أو ارضاء شهوة ، ومع ذلك فهو يطالب بأن يكون لدى كل فرد ما يكفيه عن طريق الملكية أو العمل ، ليحرره من سلطان الحاجة وسلطان من يعتقدون أن بيدهم موارد الرزق وأمور الخلق ٠

فاذا عجز المرء أو قصرت به مواهبه وطاقاته عن أن يكون لديه مايكفيه ـ فرض له الاسلام حقا فى أموال الاغنياء بقدر حاجته ، ومنشأ هذا الحق هو وحدة المجتمع المسلم وتكافله وتعاونه ، فاذا ألمت نازلة بأحد أعضائه أسرع الباقون لنجدته وتخفيف آلامه ٠

وفى الوقت نفسه يحرم الاسلام الترف ، فهو التربة الملائمة لبذور الفساد والشهوات والانحراف ، وهو يعمل على توسيع الهوة بين مستويات العيش ، واثارة الاحقاد والضغائن فى صدور الناس ٠

ولكن ما المراد بالترف ؟ وما حدوده ؟

نبدأ أولا فنقرر أن الاسلام يضع قيودا لانفاق المال ، فصاحب المال ليس حرا حرية مطلقة فى التصرف فى ماله كما يشاء ، لان مثل هذه الحرية كفيلة بأن ترتد اضرارا بنفسه

وبالمجتمع ، فالتقتير والاسراف منهى عنهما فى الاسلام لما ينشأ عنهما من آثار تسىء الى الفرد والجماعة : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولاتبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا » (١)

فالامساك عن أنفاق المال يتعارض مع مايدعو اليه الاسلام من تمتع الفرد بطيبات الحياة المشروعة حتى تغدو الحياة بهيجة جميلة : « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولاتسرفوا انه لايحب المسرفين • قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الايات لقوم يعلمون • قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على اللهما لاتعلمون » (١)

فالاسلام يدعو الى التمتع بطيبات الحياة المشروعة فى غير أسراف والامة مطالبة بأن تهىء ذلك لافرادها جميعا ، ومن ثم كان للفقير حق معلوم فى مال الغنى ـ والفقير هو الذى يملك أقل من نصاب الزكاة ـ وهو يعطى هذا الحق لكى يتمكن من التمتع بطيبات الحياة ، لاليعيش عيشة الكفاف •

والاسلام حين يدعو الى الصبر على شظف الحياة فهذا لا يعنى أنه يدعو الى الحرمان من طيباتها ، بل ان هذا يعنى أن المسلم لاينبغى أن يهلع ويجزع ويفقد أعصابه عندما تقسو به الحياة ، بل يبقى ثابت الفؤاد وهو يواجه الازمات الطارئة حتى يستطيع التغلب عليها •

---

(١) سورة الاسراء ـ الآية (٢٩) •

(١) سورة الأعراف ـ الآيات (٣١ ـ ٣٣) •

فالمسلم مطالب بأن يأخذ حظه من طيبات الحياة ومتعها المشروعة ، ولكن بدون غلو ولا لهو ولااسراف ، فان ذلك مما يعين على الاحساس بجمال الكون ، والتأمل فى عظمة الخالق ، والتسامى بالنفس الانسانية فوق ضرورات العيش ، والتفرغ للتفكير والابداع ٠

* * *

ثم أن الامساك عن الانفاق يؤدى الى حبس المال عن التداول ، مما يعود بالضرر على الأمة ، اذ هى فى حاجة الى تداول المال لايجاد فرص العمل لابنائها ، وانتاج ماتحتاج اليه حتى تغدو قوية عزيزة الجانب ٠

* * *

الاسلام اذا ينهى عن التقتير وغل اليد ، كما ينهى أيضا عن الاسراف والتبذير ، والمراد الاسراف فى الانفاق على النفس ، وليس الاسراف فى الانفاق فى سبيل الله ، فلو أنفق المسلم ماله كله فى سبيل الله فان ذلك لايعد أسرافا ، وتاريخ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم زاخر بكثير من الشواهد ٠

الاسراف فى الانفاق على النفس هو الترف الذى نددبه الاسلام ، وأبرزه القرآن فى صور بشعة ممجوجة ٠

فالمترفون جبناء يفرون عند الشدائد وينهارون اذا جد الجد : « واذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين » (١)

---

(١) سورة التوبة ـ الآية (٨٦) ٠

لقـــد ألفوا حياة التنعم والترهل فضعفت ارادتهم ، وفترت همتهم ، فالحياة عندهم لذائذ وشهوات ومتع هابطة ، والخروج للجهاد يحرمهم من هذه الحياة التي لايعرفون سواها .

والمترفون هم أعداء الانبياء والمصلحين فى كل زمان ، فان حياتهم السهلة الناعمة ، ومايحيطون به أنفسهم من خدم وأتباع يتملقونهم وييسرون لهم سبل الملذات ـ كل ذلك يدفعهم الى الصد عن سبيل الله ، والتصدى لكل دعوة أصلاحية كفيلة بأن تجـــردهم من امتيازاتهم ، وتحرمهم من ملذاتهم ، وتعريهم أمام أتباعهم الذين يستغلون ضعفهم وحاجتهم وجهـالتهم ، وترفع هؤلاء الاتباع فتسوى بينهم وبين سادتهم فلا يعود لهم عليهم سلطان ـ بالاضافة الى تبلد مشاعرهم وقسوة قلوبهم نتيجة سلوكهم الحيوانى .

ولنتأمل بامعان هذه الآيـات الكريمة :

« وما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين » (١) .

« قال الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم فى الحياة الدنيا : ما هذا الا بشر مثلكم يأكل مما تأكلـون منـه ويشرب ممـا تشربون ، ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكـم اذا لخاسرون » (١)

« أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل ؟ قالوا

---

(١) سورة سبأ ـ الآيتان (٣٤ ـ ٣٥) .
(٢) سورة المؤمنون ـ الآيتان (٣٣ ـ ٣٤) .

سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا » (١) ٠

* * *

والترف سبب للهلاك فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، اذ هو يؤدى الى البطر ـ وهو من أسباب استئصال الأمم : « وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلا وكنا نحن الوارثين » (٢) ٠ كما أنه ييسر سبيل المعاصى فيودى بصاحبه الى الجحيم : « فى سموم وحميم وظل من يحموم لا بارد ولا كريم انهم كانوا قبل ذلك مترفين » (٣)

* * *

وسماح الأمة بوجود المترفين فيها ، يفسدون ، ويعربدون ، ويشيعون الفاحشه والمنكرات ، وينشرون الميوعة والتخنث ، ويخربون الذمم والضمائر ، ويقلبون الموازين ، ويحطمون المعنويات ـ يؤدى بطبيعته الى الدمار والسقوط : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (٤)

* * *

والمستوى العام لحياة الامة هو المقياس الذى يعتمد عليه لمعرفة حد الترف والشظف ، والضمير المسلم هو الذى يمسك بهذا المقياس ، وهو ضمير لايضل ولايزيغ ٠

---

(١) سورة الفرقان ـ الآيتان (١٧ ـ ١٨) ٠
(٢) سورة القصص ـ الآية (٥٨) ٠
(٣) سورة الواقعة ـ الآيات (٤٢ ـ ٤٥) ٠
(٤) سورة الاسراء ـ الآية (١٦) ٠

والمسلم بعد هذا كله مطالب بأن يتسامى فوق متاع الحياة حتى لايتحول الى عبد ذليل ، والنبى صلى الله عليه وسلم يصور ذاك الذى يتكالب على الحياة ، ويتضاءل أمام متعها حتى تغدو كل همه ، ومبلغ سعيه ، ومنتهى أمله ـ يصوره فى صورة العبد الرقيق : « تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الدينار ، تعس عبد القطيفة ، تعس وانتكس ، واذا شيك فلا انتقش » (١) ٠

أجل لقد نكس نفسه ، فبدل أن يتعالى على متع الحياة ، فيتمتع بها تمتع السيد بما يملكه ، اذا به يهبط ويهبط حتى تتملكه هى وتحوله الى عبد ذليل يلهث وراءها ، ويريق ماء وجهه على قدمها ٠

---

(١) رواه البخارى ٠

الماركسيـــة وموقفهـــا من الاســـــلام

كان « ماركس » يعتبر أن الدين هو أفيون الشعوب ، وأنـــه حليف طبعى للبورجوازية تستغله فى تخدير الفقراء وحثهم على الرضـــا بواقعهم الاليم ، وتثبيط هممهم عن الانتفاض والانقضاض على مستغليهم وجلاديهم ٠

ولئن كانت الاوضاع الدينية فى « أوربا » آنذاك قـد تسوغ لماركس وأتباعه هذا الموقف من الدين ـ فمن تزييف للعقيـدة المسيحية ، الى صكوك الغفـران ، الى محـاكم التفتيش الى اضطهاد للعلماء والمفكرين ، الى تضخم الثروات فى أيدى كبار رجال الدين وتأييدهم لطغيان الملوك والحكام ، ووقوفهم الى جانب المترفين ، وتجردهم من كل شعور بالعطف على البؤسـاء والمحرومين ـ كل هذه المهازل قد تبرر لماركس موقفه العـدائى من الدين السائد فى مجتمعه ـ ولكنه بدل أن يدعو الى اصلاح دينى يرد الناس جميعا الى حظيرة الله ـ نجده يصم الدين كله بهذه الوصمة : « أفيون الشعـوب » ، ويعمم الحكم على الدين ككل ، وقد كان الاجدر به أن يقصر حكمه على الاوضاع الدينية الفاسدة المحيطة به فى وطنه ـ والاسلام برىء من ذلك كله ٠

وقد بقى عداء « الماركسية » للدين قويا علنيا فترة طويلة من الزمن ، حتى اذا ما بدأت أطماعها تمتد الى ديار الاسلام أتخذت موقفا مرحليا تهادن فيه الدين ولاتهاجمه وتتملق فيه أتبـاع الدين طمعا فى أستمالتهم وكسب تأييـدهم ، وتزيد على ذلك دعواها أن من الممكن بل من الواجب عقد نوع من التوفيق بين الاسلام « والماركسية » ٠

وهذه دعوى فى غاية الخطورة قد ينخدع بها بعض السذج والاغرار،فالاسلام دين له نظامه الخاص فى مختلف جوانب الحياة: الروحية والاقتصادية والتشريعية والسياسية والثقافية ، وما يفرضه الاسلام من حلول فى هذه المجالات المتعددة يختلف جذريا عن الحلول الماركسية ، فالقول بالتوفيق بين الاسلام « والماركسية » هو محاولة للجمع بين نقيضين لا يلتقيان ٠

وان الواقع العملى يفضح هذه الاكذوبة ، ويصم دعاتها والمروجين لها بالنفاق والخداع والوصولية رغبة فى تخدير المسلمين حتى يتمكنوا هم من السيطرة على مقاليد الأمور ٠

فلم تكن « الماركسية » فى يوم من الايام صديقة للمسلمين، وتاريخ «الماركسية » منذ البدء ــ عندما كانت مجرد نظرية ، وبعد أن أصبحت لها دولة بل عديد من الدول ــ يؤكد أن عداء « الماركسية » للاسلام هو أشد وأقسى من عدائها لاى دين من الاديان ــ ولعل السبب فى هذا ماتراه « الماركسية » من تمسك المسلمين القوى بعقيدتهم ، وما تعلمه من أن الشعار الذى ترفعه ــ والذى يدعو الى أنصاف الفئات الكادحة المطحونة ــ قد سبقها اليه الاسلام منذ قرون ، وأن العدالة الاجتماعية فى الاسلام هى أتم وأكمل مما تدعو اليه « الماركسية » ، وأن تطبيقها يتم بدون عنف ومن غير اراقة للدماء ، ولا اثارة للحقد والشحناء ، هذا بالاضافة الى أن الاسلام بعيد عن الكهنوت وصكوك الغفران ، برىء من أضطهاد العلم والعلماء ٠

من أجل ذلك كله تولى « الماركسية » الاسلام مزيدا من العداء ٠

والشواهد التاريخية كثيرة نكتفى بذكر أمثلة قليلة منها : ــ

ففى **التركستان** قتل الماركسيون سنة ١٩٣٤ مائة ألف مسلم ، ونفوا ثلثمائة ألف مسلم ، ومات ثلاثة ملايين جوعا بعد أن أستولوا على محاصيلهم .

وفى بلاد القرم قتلوا مائة ألف مسلم جوعا فى عام واحد (١٩٢١) .

وفى الصين صدر منشور فى أكتوبر عام ١٩٦٦ يدعو رجال « الحرس الاحمر » أن يهاجموا أكثر الاعداء تخفيا الذين يقومون بنشاط ضد الحزب الشيوعى ـ أى المسلمين .

ويوجه المنشور حديثه الى المسلمين قائلا : **دمروا** مساجدكم ، أحرقوا القران ، كفوا عن الصلاة ، أدرسوا أفكار « ماو » (الزعيم الصينى) ـ اذا لم تندمجوا سنطردكم وندمركم » .

وفى يوغوسلافيا قتل الشيوعيون ٢٤٠٠٠ مسلم عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة .

وما يقوم به الماركسيون من حكام « أثيوبيا » ضد شعب أرتيريا المسلم لايزال يتردد صداه كل يوم .

وما فعله الماركسيون فى « الصومال » المسلم من أحراق لعلماء المسلمين ويفعلونه اليوم فى «عدن» المسلمة لا يحتاج الى تعليق . وما نبأ « أفغانستان » عنا ببعيد .

فكيف نصدق دعوتهم الى التوفيق بين الاسلام والماركسية ، وصداقتهم للمسلمين وهم اذا مكنوا فى الارض أهلكوا الحرث والنسل ، ودمروا المساجد ، ومزقوا المصاحف وأحرقوا المسلمين ؟ ..

ولا يلدغ المؤمن من جحر مرتين

كلمة أخيرة

وبعـد ...

فان اشفاقنا على أمتنا الاسلامية الراقـدة لا تدرى ما يفعل بها ، ولا ما يخبأ لهـا ـ هو ما حدانا الى تسطير هذه الصفحات .

انها صيحة نذيـر ، ولعلها لا تذهب فى واد !

فالأخطبوط الماركسى يخطط من أجـل تطويق هذه الأمـة ، واطفـاء جـذوة الايمان فيها .

وهو يفعل ذلك بتنسيق مع قـوى أخرى ، من الغبـاء والبلاهـة أن نسقطها من الحساب .

فأمتنا الضائعة تمـر بنفس الظروف التى مرت بهـا غـداة الحرب العالمية الأولى حيث وزعت تركـة « الرجل المريض » على الأمم الاستعمارية ، التى اختلفت على كل شىء ، واتفقت علينـا .

وأخطاؤنا اليوم هى عين أخطـاء آبائنا شهود تلك المأساة : فرقة وانقسـام ، وحقـد وخصام ، وتدابـر وتقاطع ، بـل وسيف يغمد فى لقـاء العدو ويشهر فى وجه المسلم .

وما حدث بالأمس يوشك أن يحدث اليوم فيصبح المسلمون واذا هـم يرعون الخنازير !

ومن العجب أن يحدث هذا كله اليوم ، وقـد كـان يرجـى أن تصبح الأمة الاسلامية احدى القوى العظمى التى توجه هذا العالم وتفرض كلمتها عليـه .

وان لديها من الطاقات المادية الهائلة ، والتراث الروحى الفذ ،

والموقع الجغرافى الفريد – ما هو كفيل بأن يبوئها مقعد الشمس لو أرادت .

ولكنها أبت الا أن تحطم نفسها بيديها ، وتبدد ذلك كله . فلا المادة أبقت ، ولا التراث حفظت ، أما الموقع فأصبح نكبة عليها .

وقد غدا واضحا لكل ذى عينين أن القوى العظمى (شرقيها وغربيها على السواء) قد تفتحت شهيتها هذه الأيام لالتهام هذه « الطبخة » التى أصبحت جاهزة ، ولا ينقصها سوى التوقيت .

هذا بينما المسلمون غارقون فى الأوهام والأحلام !

يحسبون أن النصر سيأتيهم على يد هذه القوة أو تلك ، ومادروا أن الجميع يتسابقون لابتلاعهم !

ولم يعتبر المسلمون بما حدث لباكستان عام (١٩٧١) حيث تواطأ عليها عباد البقر مع عباد البشر ، ووقف حلفاؤها الغربيون يتفرجون بل ويشمتون !

ألا فليعلم المخدوعون أن أمة فى الأرض لن تنصفهم ما لم ينصفوا هم أنفسهم !

* * *

وليس معنى تنديدنا فى هذا الكتاب « بالماركسيين » أننا راضون عن موقف خصومهم من « الغربيين » من الاسلام وقضاياه .

فنحن نعلم أن غايـــة الجميع واحدة ، وأن هدفهم واحد ، وان اختلفت الوسائل والمسالك ٠

فلعل أمتنا الاسلامية تفيق من نومها وتدرك ما يراد بها !

ولعل مأساة « أفغانستان » تكون هى النذير العريان !

« ربنـــا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولا تحمـــل علينا اصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنـــا ولا تحملنـــا ما لا طاقة لنا بـــه ، واعف عنـــا ، واغفر لنا ، وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » (١) ٠

صدق الله العظيم

---

(١) سـورة البقـرة ٠ الآيـة (٢٨٦) ٠

مراجع الباب الثانى

١ ـ سيد قطب : العدالة الاجتماعية فى الاسلام .

٢ ـ د. على محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق : أساليب الغـزو الفكرى للعالم الاسلامى .

٣ ـ د. محمد البهى : الفـكر الاسـلامى الحديث وصلتـه بالاستعمار الغربى .

٤ ـ د. محمد البهى : تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظر والتطبيـق .

٥ ـ د. مصطفى محمود : الماركسية والاسلام .

٦ ـ د. مصطفى محمود : لماذا رفضت الماركسية ؟

٧ ـ وحيد الله خـان : الاسلام يتحدى .

٨ ـ على عبد العظيم : الاشارات العلمية فى القرآن ـ مقـال بجريدة الأهـرام (١٩٧٩/٣/٩) .